قضايا التاريخ الكبرى

٢ ـ من قضايا السحرة

صفحة من الجرائم المروعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان لظهور هذه الحقائق المروعة عن جرائم السحرة وقع عميق فى باريس وفى فرنسا بأسرها ؛ ولم يكن القضاء العادى ليكفى لسحق هذه الطغمة الآثمة وتطهير المجتمع من عيثها الذريع ، فرأى لويس الرابع عشر ووزراؤه أن يعهد بعقابها إلى القضاء الاستثنائى ، وانتدبت لذلك محكمة خاصة هى « الغرفة الساطعة »(١) الشهيرة فى تاريخ ذلك العصر ، وسميت كذلك لأن المحاكم الخاصة التى تنتدب للنظر فى الجرائم الكبرى كانت تجلس فى غرفة تجلل جدرانها بالسواد وتنار بالشاعل والمصابيح

وعقدت « الغرفة الساطعة » جلستها الأولى فى العاشر من ابريل سنة ١٦٧٩ ، وقررت أن تكون إجراءاتها وتحقيقاتها سرية حتى لا يقف الجمهور على شىء من الأعمال السحرية أو أسرار السموم ؛ وتولى الرآسة المستشار لوى بوشرا كونت دى كومبان يعاونه عدة من أعضاء مجلس الدولة ؛ وتولى لاربنى مهمة القاضى المحقق ؛ وكانت إجراءاتها تتلخص فى أن كل من تقع عليه شبهة الاتهام يقبض عليه بأمر الملك أعنى بواسطة « اللتر دى كاشيه » (أو رقعة السجن) ، وتقدم نتيجة التحقيق الأول إلى النائب العام ، وله وحده أن يقرر المواجهة بين الشركاء ، وعند انتهاء التحقيق يرفع به تقرير ضاف إلى « الغرفة الساطعة » ؛ وهى تقرر ما إذا كان يجب الاستمرار فى اعتقال المتهم ، فاذا قررت ذلك ، استمر التحقيق معه ؛ وعند نهايته ، ترفع أوراق الاتهام إلى المحكمة ، فيقرؤها القضاة ، ويقدم نائب الملك (النائب العمومى) طلباته سواء بتبرئة المتهم أو بالحكم عليه ؛ ثم تسمع أقوال المتهم فوق منصة المحكمة ، وبعدها تصدر المحكمة حكمها غير قابل للاستئناف

وكانت « الغرفة الساطعة » تنعقد فى قصر « الأرسينال » ؛ واستمر انعقادها باستمرار حتى يوليه سنة ١٦٨٢ عدا فترة أشهر وقفت فيها جلساتها ؛ وبلغ عدد المتهمين الذين قدموا اليها ٤٤٢ متهماً ، تقرر استمرار اعتقال ١١٨ منهم ؛ وحكم بالاعدام على ستة وثلاثين ، وتقرر تعذيبهم بالتحقيق العادى وبالتحقيق الاستثنائى ، ثم أعدموا حرقاً كما سيجىء ؛ ومات اثنان فى السجن ؛ وحكم على خمسة بالاشغال الشاقة ، وبالنفى على ثلاثة وعشرين ؛ وأطلق سراح الباقين لا لأنهم أبرياء ، ولكن لأن لهم شركاء فى التهم المسندة اليهم من أكابر الدولة والسادة وأرفع سيدات البلاط

* * *

يقول ڤولتير فى كتابه « عصر لويس الرابع عشر » فى حديثه عن قضية السحرة ، إن أعظم رؤوس فى المملكة استدعوا لابداء أقوالهم أمام « الغرفة الساطعة » ومنهم ابنتا أخت الكردينال مازاران ؛ والدوقة دى بويون ، والكونتة دى سواسون والدة البرنس أوجين ، والماريشال دى لوكسمبورج ؛ وقد كان لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من أكابر المملكة علائق ومعاملات مع السحرة

وقد كشف التحقيق عن واقعة أشنع وأفظع هى أن حياة الملك ذاتها كانت موضعاً لاثمار السحرة ، وأن التحريض على اغتيالها لم يجىء إلا من أعماق القصر ، ومن أقرب المقربين لشخص الملك ذاته

كانت مدام دى مونتسبان حظية لويس الرابع عشر الشهيرة ،

---

(١) La Chambre ardente

اطمأن بى المجلس قال حافظ : مارأيك فى شعر اليازجى ؟ فأجبته ؛ قال : فالبستانى ، فنجيب الحداد ، ففلان ، ففلان ؛ فداود بك عمون ؟ قلت : هذا لم أقرأ له إلا قليلاً لا يسوغ معه الحكم على شعره . قال : فماذا قرأت له ؟ قلت : ردّه على قصيدتك اليه : شجتنا مطالعُ أقمارِها . قال فما رأيك فى قصيدته هذه ؟ قلت : هى من الشعر الوسط الذى لا يعلو ولا ينزل

فما راعنى إلا رجلٌ فى المجلس يقول : أنصفتَ والله ! فقال حافظ : أقدم لك داود بك عمون ..... رحم الله تلك الأيام !

(طنطا) محمد سعيد العريان

قد وصلت فى ذلك العصر إلى ذروة القوة والنفوذ ، وتبوأت فى البلاط أرفع مكانة ، وبسطت سلطانها على المليك المتيم مدى أعوام طويلة ؛ ولكن حل عهد السأم والهجران أخيراً ، ومال الملك عن حظيته القديمة إلى حظية جديدة هى فتاة من وصيفات الشرف تدعى الآنسة دى فونتانج ، فلما شعرت مدام مونتسبان بأفول نجمها اضطرمت سخطاً ويأساً ، وفكرت فى أن تنتقم من الملك وحظيته الجديدة معاً ، واتصلت بالساحرة لا فوازان وزميلة لها تدعى لاريانون ، فتعهدتا بتدبير مشروع لاغتيال الملك ؛ وتعهد الساحران المسمان رومانى وبرتران بقتل الآنسة دى فونتانج ، وبذلت مدام دى مونتسبان للسحرة مالا وفيراً

وكانت مدام دى مونتسبان إبان نفوذها وسلطانها وثيقة الصلات بلافوازان وشركائها ؛ وكانت تلجأ إلى السحرة التماساً لتوطيد نفوذها بفعل السحر والتمائم ؛ وكانت هذه الحسناء المتكبرة تنزل عند دجل السحرة ، وتقبل الاشتراك فى إجراءات السحر الأسود ، فترقد عارية أمام أولئك الطغام ، وتقوم لافوازان وزملاؤها باجراء القربان الدموى والسحر الأسود ، وتعتقد الحظية الهائمة أنها بذلك تذكى نار حبها فى نفس الملك وتوطد دعائم نفوذها وسلطانها

ويتلخص مشروع اغتيال الملك كما دونه لاريني من أقوال لافوازان وشركائها فى أن الجناة فكروا أولاً فى أن يزهقوا الملك بالسم ، وذلك بأن ينثروه على ثيابه أو حيثما اعتاد أن يمر ، فيستنشقه تباعاً ويموت ببطء ، وتعهدت الآنسة دريبه وصيفة مدام دى مونتسبان بتأدية هذه المهمة . ولكن لافوازان رأت بعد التفكير أن تلجأ إلى وسيلة أخرى . وذلك أن لويس الرابع عشر اعتاد طبقاً لعادة قديمة أن يتلقى بنفسه فى أيام معينة العرائض التى يرفعها اليه رعاياه بالتظلم والالتماس ، ويسمح لكل بالدخول عليه عندئذ دون فارق أو تمييز ، ففكرت لافوازان أن تعد عريضة من هذا النوع تضمخها بنوع من السم الزعاف ، فاذا تناولها الملك بين يديه سرى اليه السم وهلك ؛ وتعهدت الساحرة لاريانون باعداد هذه العريضة ، وتعهدت لافوازان بتقديمها إلى الملك . ورؤى أن يكون موضوعها طلب الغوث لشخص يشتغل بالسيميا ويدعى بلسيس ويعتقله المركيز دى تم فى قصره ، وسمت لافوازان لدى وصيف بالقصر من معارفها ليسهل لها مهمة تقديم العريضة بنفسها

وارتاع الجناة لجرأة لافوازان ، وتنبأوا لها بالوقوع بين براثن القضاء متهمة بجريمة دولة ؛ ولم يكن الموت شر مايخشاه السحرة فى تلك العصور ، بل كان التعذيب أشد ما يروعهم ، بيد أن لافوازان كانت تخلبها وتغريها مائة ألف جملتها مدام دى مونتسبان ثمناً للجريمة (نحو مليون فرنك من النقد المعاصر) ، فقصدت إلى سان جرمان فى يوم ٥ مارس سنة ١٦٧٩ ، ثم فى التاسع منه ، محاولة أن تصل إلى الملك فتقدم اليه العريضة المسمومة ، ولكنها لم تفز ببغيتها ، فعادت مكتئبة إلى باريس ، ولكن مصممة على أن تعود فى أول فرصة . بيد أن عين لاريني كانت ساهرة ترقب أعمال السحرة ؛ وفى الثانى عشر من مارس قبض عليها وعلى ابنتها مرجريت ، وعلى عدة من شركائها حسبما أسلفنا

ولما ذاع نبأ القبض على لافوازان وشركائها ، ارتاعت مدام دى مونتسبان ، وغادرت البلاط فى الحال إلى الريف ، فمكثت هنالك مدى حين

* * *

أنفقت المحكمة الخاصة أو « الغرفة الساطعة » أشهراً طويلة فى تحقيقات واجراءات يتسع نطاقهما يوماً عن يوم ، وكان التحقيق يمتد شيئاً فشيئاً إلى طائفة من الرؤوس الكبيرة ، حتى أن المحقق لاريني اضطر أن يطلب حرساً خاصاً لمرافقته فى زيارته لسجن ڤنسان حيث اعتقل المتهمون ، وكثر الهمس والوعيد حول قضاة الغرفة الساطعة ، واهتم الملك ووزراؤه بالأمر ، وكتب لوفوا رئيس الوزارة إلى رئيس المحكمة يقول له : إنه لمناسبة ما نمى إلى جلالته من الحديث حول « الغرفة » واجراءاتها ، فان جلالته قد أمر بتبليغ القضاة أنه يؤكد لهم حمايته ، وأنه يطلب اليهم أن يستمروا فى اقامة العدالة بثبات . ثم زاد الملك على ذلك فاستدعى اليه قضاة المحكمة ليطمئنهم ويشجعهم ؛ ويقول لنا لاريني تعليقاً على تلك المقابلة ، إن جلالته قد أوصاه بتحقيق العدالة والواجب ، وإنه يرجو تحقيقاً لخير المجموع أن تنفذ جهد الاستطاعة إلى أسرار جرائم السموم ، وأن تجتث جذورها إذا

استطعنا ، وذلك دون تفريق بين الأشخاص والمقامات

بيد أنه قد طلب إلى القضاة من جهة أخرى أن يلزموا التحفظ في بعض الأمور ، وظهر أثر هذا التحفظ في الحرص على عدم حالة لاڤوازان إلى التعذيب ، وذلك خوفاً من أن ينطلق لسانها حين التعذيب بما لا يراد أن يذاع وأن يعرف ؛ ومع ذلك فقد صرحت لاڤوازان في ساعتها الأخيرة عقب الحكم عليها بالأعدام « أنها مضطرة لأن تقول اراحة لضميرها إن عدداً كبيراً من الناس من جميع الطوائف والطبقات قد لجأ اليها سعياً إلى ازهاق الكثيرين ، وإن الباعث الأول لهذه الجرائم إنما هو الفجور »

ولما وقف لويس الرابع عشر على أقوال مرجريت مونڤوازان ابنة لاڤوازان عقب اعدام أمها ، كتب إلى لاريني يطلب اليه أن يدون اعترافاتها وما يترتب على هذه الاعترافات من مواجهات ومناقشات في ملف خاص ، وكذلك أقوال الساحرين رومانى وبرتران ، وهما من شركاء لاڤوازان . وقد كانت أقوال مرجريت مونڤوازان ذات أهمية خاصة لأنها تتعلق بمشروع تسميم الملك ، ومن جهة أخرى فقد وعد لوڤوا الساحر ليساج بأن ينقذ حياته إذا قال كل شيء ، ولكنه لما ذهب في اعترافاته إلى حدود مروعة ، رمى بالكذب ولم يقبل المحقق أن يصغى اليه بعد ؛ وأدلت متهمة أخرى تدعى فرانسواز فيلاستر بمعلومات مثيرة مدهشة ، فأمر الملك بأن تودع أقوالها في ملف خاص ، وأن ترفع إلى مجلسه ؛ وهكذا بلغ من اهتمام لويس الرابع عشر بهذه القضية أن لبث يتتبع كل أدوارها ، وأن يسحب من أوراق التحقيق كل ما لا يرغب في اذاعته ؛ والواقع أن لويس الرابع عشر تأثر أيما تأثر لما كشفت عنه التحقيقات من الوقائع والحقائق المؤلمة التي تصيبه في أعز عواطفه وفي كرامته الملوكية . ألم تلجأ حظيته التي كان يعبدها إلى السحرة ، وتلوث نفسها وجسمها في معاهدهم سعياً إلى ازهاقه ؟ أليست مدام دي مونتسبان أم أولاده المحبوبين ؟ ومع ذلك فقد كظم الملك العظيم ألمه وتأثره ؛ ولبثت هذه الوثائق الهائلة التي تكشف عن عاره في خزائنه السرية أعواماً طويلة حتى أمر باحراقها بعد ذلك في مدفئه في يوم من أيام سنة ١٧٠٩ ، أعني بعد هذه الحوادث بثلاثين عاما

***

كانت « الغرفة الساطعة » حاسمة صارمة في أحكامها ، فقد حكمت بالاعدام والتعذيب على ستة وثلاثين متهماً ثبتت إدانتهم في مزاولة التسميم والأعمال السحرية الاجرامية ، وذلك من مجموع قدره مائة وثمانية عشر متهماً . ونفذ الاعدام في المحكوم عليهم تباعاً ؛ وكان إعدام السحرة يجرى بطريق الحرق دائماً . وكانت لاڤوزان ولاڤيجوريه وليساج في مقدمة المحكوم عليهم بهذا الموت المروع . وقد احرقوا معاً في « ميدان جريف » . وتصف لنا مدام دي سڤينيه الكاتبة الشهيرة منظر إحراق الساحرة لاڤوازان — وقد شهدته بنفسها — وتقول لنا « لقد أسلمت لاڤوازان روحها للشيطان في اطار » . وينقل إلينا الكاهن الذي تولى مرافقة الساحرة إلى المحرقة كلماتها الأخيرة وهي : « إنني مثقلة بأكداس من الجرائم ، ولست أدعو الله أن ينقذني من النار بمعجزة ، لأن ما سألقاه من الجزاء لا يقاس بشيء مما ارتكبت »

ويقدم إلينا ڤولتير في كتابه « عصر لويس الرابع عشر » خلاصة لهذه الحوادث والمحاكمات المثيرة ثم يعلق عليها بقوله : « نستطيع أن نتصور أية إشاعات مروعة أذيعت خارج باريس . بيد أن حكم الاعدام الذي قضى به على لاڤوازان وشركائها قد وضع في الحال حداً لهذه الأعمال وهذه الجرائم ؛ وقد كانت هذه الحرفة المروعة محصورة في شرذمة من الناس ، ولم تلوث أخلاق الأمة كلها ؛ بيد أنها طبعت أذهان الناس بميل سقيم إلى اعتبار الوفيات الطبيعية ، نتيجة الجريمة »

والواقع أن هذا الثبت من الآثام والجرائم المروعة يلقي ضياء كبيراً على روح هذا العصر وخلاله — ويؤيد حقيقة تاريخية خالدة ، هي أن عصور العظمة القومية ، تتكشف في الغالب عن صنوف من الانحطاط المعنوي والاجتماعي تتناسب مع ما تبثه نعماء العصر وترفه من ألوان الفساد الروحي والأخلاق ، ومع ما يذكيه العصر من الشهوات الانسانية الوضيعة . وقد كان عصر لويس الرابع عشر بلا ريب على ما بلغه من العظمة والبهاء يعاني فعل هذه العناصر الهدامة التي انحدرت بالمجتمع الفرنسي غير بعيد إلى درك من التفكك والانحطاط ، كان نذير الثورة الفرنسية الكبرى (١)

تم البحث

محمد عبد الله عنان

(١) اعتمدنا في هذا البحث على كتاب العلامة فونك برنتانو Siecle de Louis XIV وكتاب ڤولتير Le drame des poions